قصة
ليلة القصف
جمال بن عبد الله الحيان

رقم الإيداع الدولي:

123_666_ 45_0098

تحقيق ومراجعة:

الشرطي الخلّ والصديق

لم يتفوه بحرف ، وارتعش فمه المزموم ، فألفى نفسه ينظر إلى النّافذة ، والدّشم الخرسانية تتراقص على إيقاع الحرائق والقصف .

لم تعد هناك أي كلمات للتحايل على المعاني ، أقول أو لا أقول ...؟!لقد مُحلت ذاكرة المعجم العربي ، واختلطت معانيها وجفت الكلمات على الورق .نقوش على السقف مائجةٌ على سحب الدخان النّاغل في الرأس ، وقصف مدوٍ على البنايات المتعالية .

انطفأت النّجوم على كتفي تحت القمر الشاهد على ظلم الجيران ، فقد انقلّب الليل إلى نهارقائظ حيث يتلظى الحديد ، وتنصهر كل قيم الأخوة والحوار، فتغور الأيام السالفة في الماضي ، فكل الأشياء صارت ساكنة كأنها الجماد ، قابعة في مكانها كالصنم .

فمن هناك تكشّف البحر حتى أفق الاندغام ، فسمعت طلقة الغدر التي تمايلت معها أشجار البساتين على الجانب الآخر من لعالم .

تتبدى الصلابة في عظام وجهي البارزة ، والشوارع تحرسها إنارات بلا ناس ، وبحر مظلم، وناقلات نفطٍ بالت في المُحيط السّواد .

فبذلك الصمت و تلك التفاصيل الصغيرة ، لم أصدّق كيف أمكن للعراق أن تباغتنا هكذا ...أهي التي تقصف الآن ...!!

هي الجرذان تغزو كل الأمكنة ليل نهار، بعد أن فُجرت شبكات الصرف الصحي ، وآلتطم الماء الحلو بالمياه العادمة ، آخذين حوارا سرّيا في الظلام ، حتى اختفيا في طقس من الطقوس العجيبة .

لقد اختنقتُ بحصاة الغدروالحزن ، فلا أنا استطعت لفظها ولا الحصاة أخذت إحدى الطريقين ، زاد ارتجافي وتوقفت وسط أمواج بخور الكبريت التي تكتسح المكان .

دلفت ملهوفا لداخل البيت كي أشرب ، فاعتكر بصري فجأة ، وللحظة...بزوغ و انطفاء...؟!

كنت قد بدأت للتوّ في بداية غبشتي المسائية ، وقد مسحت بُردن قميصي وأمواج تتلاطم وهي تغور في طراوة الرمل . كان يوما حارًا ، وككل الأشياء التي تتثاءب في صهد الظهيرة .

بدأت الحيتان تزحف في الصبيحة ملطّخة بزيوت سوداء تبيّن أنه بترول ، والنّاس واضعةٌ على أنوفها مناديل مختلفة الألوان للحد من قوة الرائحة . ضاقت نفسي للمنظر ، وظللت أنتظر حتى الظهر بعد أن ارتفعت الشمس متوسطة سماء زرقاء .

شمس بلا ظلال وبحر قد طُلي بالسواد . تعالت أصوات الجيران وقد بثت الإذاعة الوطنية الكويتية البيان الفاضح ، كنا نترقب التفاصيل والحقيقة ، وبدأت الحلوق تعلن يأسا كئيبا .

عوى الذّئب المُدمى ...!!

آهٍ ... لم يعد صغيرا ...!!

هدّ الغيظ الأمة الكويتية وأكل منها من كلّ ناحية ، فلربما ستعيدهم الحرب لبدويتهم الأولى . عمّ صمت قاتل المنازل وقد سكنتها الأشباح ، وعلى الطرقات المحظورة تسمع صوت رصاص متفرّق وطائرات تحوم وتحوم ...معها الموت والكبرياء ...

صمت متجلبب بصوت كالفحيح الهاجم ، فتبخرت كل تلك الصور الجميلة من على مخيّلة الشعب الكويتي . دخان القنابل الفاحم و تراشق الرصاص مع العدو الغاشم ، ودموع النساء وذهولها والأسى القابض على أرواحهن ... مأساة أخرى .

ففي الفضاء المغبش تعالت صيحات التكبير والاستنكار ، والعدوّ يمارس علينا طقوس العذاب ومازوشية جلد الذّات .

"أنا إسمي أكرم مخلوف ، مواطن كويتي " .

هربت روحي تبغي الفراروالكل يسير حذاء واجهات المحلات . أتلهّى نابشا في الفراغ الذي توقف هو أيضا ينتظر سقوط جبال الليل الغارقة بالمطر. مطر الدّموع والخوف والهلع .

أجري _ صوب بيت والدتي بالضاحية الجنوبية للمدينة _ ككبش ينطح غبار حو افره ، فبقامتي النّحيلة وعنقي الطويل ، تمتمت بشيء غصّ بي :

لطفك يا رب ... لطفك يا رب ...

بأي شيء سأتلهى كي أنسى ما حدث ، و أتقي حرج الموقف . فالجميع يعرفون أنّ الأمر لم يعد مجرّد تهديد عابر بل هي حرب بدأت طلائعها للتو .

طغى وجوم على الأشداء ، واشتد عويل النساء والجبناء ... ارتجّ زجاج النّو افذ على صوت قذيفة هاون سقطت بقرب مسجد الخطاب ، وأمطار صيفية حمضية لا مذاق لها ولا لون، مطر ثقيل الإنهمار، يصفع ويعاقب الأرصفة والنو افذ والوجوه ...

بدأ الشّك ينغلُ في قلبي ، فأصبح يُجرّللتذكّر، فبعد أن وصلت لبيت والدتي ، خرج الكل لساحة قرب الحي وقد تكوّروا بجانب بعضهم البعض والكل منطوٍ على شريط أفكاره ...

أتوق لفنجان قهوة ينتشلني من رخاوة الغثيان ، مكابدا ألم قدميّ الحافيتين ، ماكثا على هذا الوضع دقائق بطيئة ... ثقيلة . بعد ذلك تفجرت انبجاسة القيء المؤجلة في معدتي كأنّه خروج الروح ، ودبيب ألم يتسلّق من باطن قدميّ .

ركدت بجانب إخوتي وقد غرقوا جميعهم في موجة ضحك أذابت توترهم وخوفهم . لقد أضحكتهم هيئتي المثيرة ...!!

"مخلوف الأنيق مرتب الهندام دائما ، خرج بلباسه الداخلي حافيا ، مهرولا خائفا ، وهو يتملّى والدته أسماء بعينين حانيتين تكادان تدمعان "

كدت أفقدك يا أمّاه ...!!

لم تعلّق ، وتركتني أتشرّب المعاني حتى آخر صوت ، وبدأ أخي مروان بالتحدث قائلا :

لن تصدّقوا أنّ العراق هي التي تبنت الهجوم ... غير معقول ...!!

لقد غدرت بنا هذه المرة ...!!

استسلمنا جميعا لكلامه في وجوم مثقل بإحساس الترقب لشيء ما . جفل قلب أمي وخافت بينما أخرجت كلمات هائجة مبتلة برذاذ الفم المعبّإ بأحاديث النّهار العادية .

هي صرخة امتزجت مع الحنان والحب وصرخة الليل الأبيض ...

الحمد لله على سلامتك حبيبي !!

لم يعد هناك بحر ولا شواطئ ولا أصداف ، لا نسيم بعد الآن ، ولا حرير على الخذوذ ... لطم ودموع فقط .

فتلك السفينة التي يتطاول شراعها الرهيف في البعيد كأنه سراب أو طيف :

لا تقتربوا فبحركم صار إلى السّواد ...!!

تلونت ظهور الأسماك وأصداف البحر الجميلة البريئة ، وحجارة الشاطئ بلون الزيت المحروق الداكن ، وشيء ما منعني من الهتاف بالسخط والويل .

كنّا كثيرين في الساحات والحدائق وموا قف السيارات وعلى جنبات الشواطئ. انتفض إخوتي على فكرة أنّي خائف وقد تسلل وعيي في وهدة الصدمة بهدوء ، ور ائحة العرق والتراب والكبريت والمجاري على كامل أرجاء المدينة ...

لا مفر...لا مفر...!!

نطق مروان قائلا :

تبّا للعراق ...!!

سمعه الجميع ...

وكنت مع الجميع ...

ولم أقل شيئا مثلي مثل الجميع ...

لقد كانت بقايا دخان السجائر مثل الضباب المحروق ، فالكل قد توترو انزعج. سمعت عمي يقول بصوت حاسم :

" لقد اشتريت بضاعة مهمة من العراق البارحة ، و من المفترض أن تصل بعد أسبوع ، وها نحن اليوم نرى ما لم يكن في الحسبان ، فكم في نظركم ستعلّق الرحلات ...!!

لا أدري أأحـزن للقصـف أم لبضـاعتي التـي أظـن أنهـا راحـت ، أم لكليهمـا معـا ... أووووه !! هذا حظ آل مخلوف دائما ... لعنة الأجداد."

ضحك مروان وهو يقول :

مؤكد أن الرحلات ستعلق ... !!

أصـابني الحـرج وزفـافي آخـر الشـهر ، لقـد أعـددت كـل شـيء ، وبمـا أنّ الجـو مشـحون بكـلام لـم ينتهـوا منـه . أشـعلت سـيجارة متواريـا عـن أنظـار الأم ، و اتجهـت إلى شـقتي كي أنعـم بقليـل مـن الهدوء .

كانـت إضـاءة غرفـة الصـالون ضـعيفة جـدّا والعجـب أن الكهربـاء لـم تنقطـع بهـذه الضـاحية . انتفضـت على صـوت الجـرس يـرنّ في رأسـي وقـد غفـوت على السـرير والسـجائر طافحـة بالأعقـاب المهروسـة . سـمعت أصـوات أحذيـة كثيـف ، فـاحترت قلـيلا، كـان الوقـت لـيلا وكنـت متعبـا إلى حدّ العياء الشديد .

لقد كانا ضابطين بزيّ مدني ينتظر انني خلف الباب :

أكرم مخلوف ... !!

قلت : نعم ، بشحمه ولحمه ...

تفضل معنا ...

لـم أضـف ولا كلمـة ، فهـذا الجـو المشـحون قـد أقـع فيـه ضـحيّة لمـؤامرة جـاهزة ، لقـد أعلنت حالة الطوارئ في البلاد .

فلما رآني أحد الضابطين أحدق به قال :

أنت عميل صدّام ...!!

فوجئت :

آه ... لا ... أنا مواطن صالح ... أنا مواطن كويتي ...!!

أراهـم ينفضـون مـؤخراتهم المتربـة الكامـدة . وقـد أدخلانـي غرفـة بـلا منفـذ ولا نو افـذ ، فـأرى نفسـي تـذوب وتضـمحل . كـان المكـان كريهـا بر ائحـة مـواد التعقـيم . اشـرأبّ نحـوي بعنقـه نـافر العروق :

اسـمك أكـرم إذن ... مـا سـر تلـك السـفريات للعـراق ... أنـت عميـل يـا ابـن الكلب...أجب...!!

خرجـت مـن حلـوق الضـباط داخـل الغرفـة همهمـات ونبرات تـوحي على أنهـم يتكلمـون عـن يقين كوني جاسوسا ...

أجبت بكل ما استطعت أن أوحي به إليهم أني صادق :

أنـا مقبـل على الـزواج سـيدي القائـد ، وسـفري للعـراق كـان لملاقـاة حبيبتي هنـاك ، أي زوجتي ... زوجتي المسـتقبلية ، ولـم يكـن سـفري للعـراق إلا لرؤيتهـا ، ومـا عسـاي أفعـل في العـراق ، لا شيء يستحق المشاهدة هناك أصلا ... لست جاسوسا صدقوني ...!!

إلتأم جرح السّكون في الغرفة . وضع القائد مسدسه على الطاولة وهو يقول:

لا زواج مـن عر اقيـة ... أتفهـم ... أحـذرك ... لـدينا عيـون وآذان فـي كـل مكـان... أنـت مر اقب

انصـرفت و أنـا متـيقّن مـن أمـرين ، الأمـر الأول أن سـروالي قـد ابتـلّ ، والأمـر الثّـاني أن زواجي لن يكون آخر الشّهر.

انتهى بفضل الله وكرمه .